ما الذي بالله غـرّك ؟

لا بُـد أنك نـمـت !

فإن لم تكن البارحة فليلة قبلها

هل غلبك النّوم يوما من الأيام أو ليلة من الليالي ؟

هل رأيت كيف سلطانه عليك ؟

فالنوم أقوى منك ، ومع ذلك هناك ما هو أقوى منه !

سُئل عليٌّ رضي الله عنه : أي الخلائق أشد ؟

فقال : أشد خلق ربك عشرة :

الجبال الرواسي ، والحديد تنحت به الجبال ، والنار تأكل الحديد ، والماء يطفئ النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يعني يحمل الماء ، والريح تقل السحاب ، والإنسان يغلب الريح يعصمها بيده ويذهب لحاجته ، والسُّكر يغلب الإنسان ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم فأشد خلق ربكم الهمّ .

فـ (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) ؟

أغـرّك حلمـه عليك ؟

أم غـرّك سمـعـك ؟

فهناك من هو أقوى منك سمعاً !

أما علمت أن البهائم التي سُخّرت لك تسمع ما لا تسمعه

أنت ؛ من عذاب القبر ؟

أم غـرّك بصرك ؟

فهناك من الطيور من هو أحـدّ بصراً منك .

أما علمت أن الديك يرى ما لا ترى من الملائكة ؟

وأن الحمار والكلب يرى ما لا ترى من الشياطين ؟

قال عليه الصلاة والسلام : إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكا ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنه رأى شيطانا . رواه البخاري ومسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : إذا سمعتم نباح الكلاب ونهاق الحمير من الليل فتعوذوا بالله ، فأنها ترى ما لا ترون . رواه الإمام أحمد وأبو داود .

فما الذي غـرّك ؟

أغـرّتك قوتك ؟

فهناك من الدوابّ ما هو أقوى منك وأسرع !

أغـرّك أنك ذو حسب أو مال ؟

فأنت هكذا وُلدت من غير منك ولا قوة

والمال مال الله ، فليس لك حذق في جمعه ، ولا قوة في كسبه .

فمن ظن أن الرزق يأتي بقوة *** ما أكل العصفور شيئا مع النسر !

أم غـرّك أن الله أملى لك وأمهل ، فظننت أن هذا لصلاح فيك ؟

قال ابن القيم في قول الله تعالى : (فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

قال رحمه الله : فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك ولكن ظن أنه لكرامته عليه فالآية على التقدير الأول تتضمن ذم من أضاف النعم إلى نفسه وعِلْمِه وقوَّتِه ، ولم يضفها إلى فضل الله وإحسانه ، وذلك محض الكفر بـها ، فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعمة وأنـها من المنعم وحدَه ، فإذا أضيفت إلى

غيره كان جَحْداً لها ، فإذا قال : أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بـها ذلك ، فقد أضافها إلى نفسه وأعجب بـها ، كما أضافها إلى قدرته الذين قالوا : من أشد منا قوة ؟! فهؤلاء اغتروا بقوّتـهم ، وهذا اغتر بعلمه فما أغنى عن هؤلاء قوتـهم ، ولا عن هذا علمه .

وعلى التقدير الثاني تتضمن ذم من اعتقد أن أنعام الله عليه لكونه أهلا ومستحقا لها ، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحق بـها على الله أن ينعم عليه .

وأن تلك النعمة جزاء له على إحسانه وخيره ، فقد جعل سببها ما اتصف به هو لا ما قام بربه من الجود والإحسان والفضل والمنة ، ولم يعلم أن ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر ، ليس ذلك جزاء على ما هو منه ، ولو كان ذلك جزاء على عمله أو خير قام به فالله سبحانه هو المنعم عليه بذلك السبب فهو المنعم بالمسبب والجزاء والكلُّ محضُ منَّتِه وفضلِه وجودِه ، وليس للعبد من نفسه مثقال ذرة من الخير . وعلى التقديرين فهو لم يُضِفْ النعمةَ إلى الرب من كل وجه ، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه ، وهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابِـها . فأسبابُـها من نِعمِه على العبد ، وإن حصلت بكسبه فكسبُه من نعمِه . فكل نعمة فمن الله وحده حتى الشكر ، فإنه نعمة ، وهي منه سبحانه ، فلا

يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته ، وشكرُه نعمةٌ منه عليه ، كما قال داود صلى الله عليه وسلم : يا رب كيف أشكرك ، وشكري لك نعمه من نعمك عليّ تستوجب شكراً آخر ؟.

فقال : الآن شكرتني يا داود . ذكره الإمام أحمد . والمقصود أن حال الشاكر ضد حال القائل : (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي) انتهى كلامه رحمه الله .

يا أيها الإنسان ما الذي بالله غـرّك ؟

أغـرّك أنك فعلتَ وفعلت ، وأنفقت وتصدّقت ؟

قال جل جلاله : (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)

سمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل : فعلت إليك ، وفعلت ، فقال له : اسكت ! فلا خير في المعروف إذا أُحصيَ .

أغـرّك أن الله يراك على المعصية ، بل وتُقيم عليها الدهور ، وهو يحلم عليك ، ويمهلك ، بل ويَقْبلك إن رجعت ؟

أغـرّك أن ربك واسع المغفـرة فطمعت في رحمته وبحبوحة جنته دون عمل ؟

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : سيبلى القرآن في صدور

أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت ، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصّروا قالوا : سنبلغ ، وإن أساؤوا قالوا : سيُغفر لنا ! إنا لا نشرك بالله شيئا . رواه الدارمي .

ما الذي بالله غـرّك وهل نسيت أصلك ؟

بزق النبي صلى الله عليه وسلم في كفه ثم وضع أصبعه السبابة . وقال : قال الله : ابن آدم أنــّى تعجزني ، وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي ، قلت : أتصدق ، وأنــّى أوانُ الصدقـة . رواه الإمام أحمد ، وهو حديث صحيح .

ويوم القيامة يوبّـخ أقوام على طول آمالهم فيُقال لهم :

(وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

وغرّتكم الأمانيّ :

مَنّـْتهم أنفسُهم اللحوق بسيد الشهداء وهم قعود بلا عمل !

قال القرطبي في تفسيرها :

وغرتكم الأماني : أي الأباطيل ، وقيل طول الأمل .

وقال ابن كثير :

قال بعض السلف : أي فتنتم أنفسكم باللذّات والمعاصي والشهوات .

وتربصتم : أي أخّـرتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قتادة : وتربصتم بالحق وأهله ، وارتبتم أي بالبعث بعد الموت .

وغرتكم الأماني : أي قلتم سيُغفر لنا .

وقيل : غرتكم الدنيا حتى جاء أمر الله ، أي مازلتم في هذا حتى جاءكم الموت .

وغركم بالله الغرور : أي الشيطان .

وقال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله في النار . انتهى .

فاحذري يا نفس من خدعة الشيطان ، ومن التسويف .

احذري مِن " سوف " و " لعل " فهي لا تُثمر سوى الحسرات .

قال ابن الجوزي رحمه الله :

أحكم القوم العِلم فَحَكَم عليهم بالعمل ، فقاطعوا التّسويف الذي يقطع أعمار الأغمار . اهـ

كان يحيى بن معاذ يقول : إن قال لي يوم القيامة : عبدي ما غرك بي ؟ قلت : إلهي بـرّك بي .

فيا رب أنت تعلم ما غرّنا غير سعة حلمك وجودك وكرمك .

فيا من ستر القبيح ، ويا من أظهر الجميل ، استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، ولا تجعلنا من المغرورين الذين غرّتهم الحياة الدنيا وغرّهم بالله الغرور .

كتبه

عبد الرحمن بن عبد الله بن صالح السحيم